الدكتور محمد نجيب مراد

المدينة – الدولة والمعجزة الحضارية الفينيقية على الساحل الشرقي للمتوسط: تجربة تاريخية عميقة في أبعادها الانسانية

الجماعة الفينيقية هي إحدى الجماعات التي اتخذت من الساحل الشرقي للمتوسط لبلاد الشام مقرا لإقامتها ، وهناك ثمّة اعتقاد بأنّ هذه الجماعة وفدت الى المنطقة من الخليج العربي حوالي الألف الثالث قبل الميلاد.

ذاع الصيت الحضاري للفينيقيين مع مطلع الألف الثاني (ق . م) . أمّا العوامل الحاملة لصعودهم الحضاري فأبرزها خمسة أساسية :

الأول ، نزوعهم الى الحرية واعتماد نظام لامركزية المدن (ديمقراطية المدن . (

الثاني ، الفكر الديني والتفاعل مع المعتقدات الدينية لشعوب الجوار الجغرافي في مصر وبلاد ما بين النهرين وصولا الى أماكن عديدة أخرى .

الثالث ، الأفق الاقتصادي وروح المغامرة في التبادلات التجارية عبر المتوسط مع العديد من الشعوب المزامنة في عالمهم القديم .

الرابع ، التوسّع السلمي بهدف الحضور الفاعل في غير مكان يرون فيه مصلحة مفيدة .

الخامس ، الابداع المعرفي الذي أفضى الى اختراع الأبجدية التي كانت ثورة عميقة في الكتابة والاقتصاد والمعرفة والادارة والتفاعلات البينية مع الشعوب الأخرى .

على مدى الألفية الثانية قبل الميلاد (2000 – 1000 ق.م)،تواصل التقدم الحضاري لفينيقيا على الساحل الشرقي للمتوسط ، حيث اتخذوا من الشاطىء السوري – اللبناني – الفلسطيني مقرا للتمركز والاقامة ، مستفيدين من الخصوصيات الجيوسياسية للموقع لجهة ديناميات التفاعل الخلاّق بين الساحل البحري وسلسلة الجبال الموازية الممتدة من شمال سوريا مرورا بلبنان وفلسطين وصولا الى مدن الساحل المصري في دمياط ورشيد والاسكندرية ، والى مدينة قرطاج التونسية وغيرها .

فتحت الاقامة على المتوسط آفاقا رحبة من الحرية النفسية والفكرية والاقتصادية لسكنى المدن الفينيقية ، حيث أفادوا من الطبيعة الجبلية المجاورة للبحر ، الأمر الذي أسهم في تكوين ثقافة فينيقية لم تتوفر لسواهم من الجماعات والشعوب المجاورة ، هي ثقافة طموحة ، ثقافة اللامحدود واللامتناهي كانت بمثابة الدافع الأهمّ وراء نزوعهم لاكتشاف المتوسط وما بعد المتوسط وصولا الى بقاع عديدة من العالم القريب والبعيد . فقد جعلوا من المدن – الأساكل أي المدن المزودة بمرافىء ساحلية مراكز ومحطات لتجارة عابرة للمتوسط بحرا من جهة ، والى برّ الشام وبلاد ما بين النهرين والخليج ومصر وشمال افريقيا وغيرها من جهة اخرى

كثيرة هي الإبداعات الحضارية التي شكّلت خصوصية فينيقية ، أبرز هذه الإبداعات :

1–ظهور المدينة – الدولة كظاهرة ابتدعها العقل الفينيقي في اعتماد نظام اللامركزية الادارية ، الأمر الذي يستجيب لحاجاتهم الى الاستقرار على مستوى داخلية المدينة من ناحية ، والى التفاعل النشط مع باقي المدن من ناحية أخرى . فقد ظهرت مدن – دول : أوغاريت ، أرواد ، طرابلس ، جبيل ، بيروت ، صيدا ، صور ، عكّا ، قرطاج التونسية وسواها .

المدينة – الدولة هي المدينة – القطب أو المدينة – المركز ، كانت وظيفتها القيام بمتابعة الاجتماع المديني من حيث أنشطته الاقتصادية والدينية والسياسية . لقد أسّست هذه التجربة الادارية للمدينة – الدولة لبنية عميقة في الهيكل الاداري الفينيقى ، فكانت ظاهرة تاريخية غير مسبوقة لجهة ما يمكن وصفها بظاهرة " ديمقراطية المدن " . إلاّ أنّ هذه الوظيفة الديمقراطية للمدينة – الدولة لم تجعل من هذه الأخيرة كيانا سياسيا منفصلا عن باقي المدن – الدول المجاورة ، وإنّما جاءت هذه الصيغة الادارية لتلافي صعوبات المسالك البرية الجبلية بين الوحدات المدينية من جهة ، ومن أجل مركزة النشاط الاقتصادي التخصصي : طرابلس (صناعة وتتجير الخزف) ، صور (صناعة الأرجوان) ، جبيل او بيبلوس (تتجير خشب الأرز) ، هذا فضلا عن الوظيفة الدينية التي اختصت بها مدن أكثر من غيرها .

كانت المدن – الدول تسارع الى قيام كونفدرالية فينيقية وتكوين اتحاد سياسي عند مواجهتها اخطارا إقليمية أو خارجية . فقد اختيرت طرابلس لتكون مقرا لمجلس اتحاد فينيقي ضمّ مدن : صور وصيدا وأرواد بهدف التنسيق المشترك ، وتوحيد المواجهة ، والمحافظة على المصالح العليا المشتركة .

2–الابداع الصناعي والتجاري :

على مستوى الصناعة افادوا من جودة أخشاب الأرز الكثيفة الانتشار في جبال لبنان الموازية للبحر المتوسط ، الأمر الذي أكسب الصنّاع الفينيقيين مهارة قلّما توفرت لغيرهم في العالم القديم ، فراحوا يصنعون السفن العابرة للبحار كوسائط نقل لمنتجاتهم الصناعية والزراعية وتتجيرها في الأسواق المجاورة لهم في آسيا وأفريقيا وأوروبا .

3–التفاعل الثقافي النشط مع الجماعات والشعوب المزامنة ، التي تبادلوا معها التجارة والمعتقدات والطقوس الدينية (جبيل – مصر مثلا . (

4-اختراع الأبجدية بحروفها ال 22 حرفا ، والتي اسهمت في تأسيس وتطوير الكتابة ، حيث أحدثت ثورة كبرى ، ليس فقط في اللغة المكتوبة ، وإنّما أيضا في تطوير الحسابات التجارية ، والتأثّر والتأثير في التفاعلات الثقافية والفنية ، وتبادل المعرفة مع سائر الجماعات والشعوب التي وصلوا اليها وتعاملوا معها .

5-مدينة أوغاريت : أنموذجا حضاريا فينيقيا :

تقدّم مدينة أوغاريت في المنطقة المسماة رأس شمرة شمال مدينة اللاذقية على الساحل السوري ، أنموذجا حيا على تجربة تاريخية لحضارة المدن الفينيقية ، التي شكّلت سبقا حضاريا على سائر شعوب العالم القديم خلال الألفين الثاني والأول ق . م .

تنفرد مدينة أوغاريت بأهمية استثنائية بين سائر مدن بلاد الشام ، فهي مهد أقدم أبجدية مكتوبة في التاريخ الانساني برمته .

اكتملت نشأة هذه المدينة على مدى 400 سنة (1600 – 1200 ق . م) ، وفيها افصح الفينيقيون عن عبقريتهم الابداعية الفكرية والمعرفية .

نافست الأبجدية الأوغاريتية اللغة الأكادية في بلاد مابين النهرين ، والتي كانت بمثابة اللغة العالمية في ذلك العصر . فالتطور الذي أحدثته الأبجدية الأوغاريتية تمثّل بتجاوز الكتابة المقطعية الثقيلة السائدة آنذاك الى الكتابة التركيبية بالحروف البالغ عددها 28 حرفا ، والتي كانت تكتب من اليسار الى اليمين ، ثمّ لم يلبث الفينيقيون أن اختزلوها الى 22 حرفا وجعلوا كتابتها من اليمين الى اليسار ، وهي الكتابة التي تفاعلت مع الكتابات الأكادية والسومرية والبابلية والهيروغليفية المصرية ، وكذلك مع سائر اللهجات اللغوية التي كانت سائدة في الجزيرة العربية والمجال الاقليمي ، حيث تجلّت التفاعلات فيما بعد بظهور اللغة العربية كلغة ملازمة للجماعات الأقوامية التي توزّعت الانتشار في المجال الجغرافي العربي ، الذي لم يلبث أن تطور الى مجال قومي يعكس خصوصيات المنطقة العربية برمتها .

تمتاز أوغاريت بموقعها المطل على البحر المتوسط الذي منحها شبكة من العلاقات الدولية آنذاك دلّت على ذلك أختامها الملكية الرسمية ، التي كشفت عن صلات وطيدة كانت تربط ملوك المدينة بالبلاط الحثي والمصري وغيرهما من الشعوب المجاورة .

كان ملك أوغاريت يتمتع بسلطة رأسية بصلاحيات جامعة ، فهو الحاكم السياسي الأعلى والكاهن الأكبر ، والسيّد المطلق ، والقاضي وقائد الجيش ، يليه شريحة النبلاء والكهنة ورجال الدين ، ثمّ يأتي المواطنون والتجّار والصنّاع والأحرار والعاملون في الزراعة (القوى المنتجة)، وفي أدنى السلّم الاجتماعي يأتي العبيد ، الأمر الذي يعكس البنية الطبقية في اجتماع المدينة الفينيقية .

هكذا ، كانت الاسهامات الحضارية التي اختصّت بها المدن الفينيقية (المدن – الدول) ، من حيث أنّها شكّلت تجربة حضارية غنيّة أكسبت الجماعة الفينيقية تميزا في الابداعات الحضارية مسجّلة سبقا على سائر الجماعات والشعوب المعاصرة لهم ، وكان كلّ ذلك بفعل النظرية الفينيقية التي جمعت بين الفكر الحر والاقتصاد المنتج ، وابتكار الأبجدية – الثورة في عالم الكتابة والمعرفة والاقتصاد ، والتواصل مع العالم الخارجي باندفاع وطموح وحضور فاعل ومتميّز .